الفصل الثاني

تموز وعشتار
في الفكر العراقي القديم

تحتل أسطورة تموز وعشتار مكان الصدارة في أدب العراق القديم لما فيها من عنصر الإثارة وأحداث جميلة، الأمر الذي أدى إلى كونها نواة لقصص شبيهة في أنحاء العالم القديم. لذا فإن الفصول التالية ستعرض علينا استمرار تلك القصة لإعطائها الأبعاد الواضحة على ربط الماضي بالحاضر. وقد لا يأتي على بال الكثير منا أن شخصية "كاوه الحداد" في الفكر الكردي، إن هي صيغة واضحة لشخصية تموز العراقية القديمة.

إن هذه السطور تُعرِّفنا على حقيقة قصة تموز وعشتار ومضمون كل فقرة مهمة فيها.

القصة

الربيع تلك الومضة المجددة للحياة، وميقات ما يتبعه من فصول، كان المحرك الأساس لخيال الإنسان العراقي القديم والسوري وأرجاء أخرى من الوطن العربي لاعتبارات جمالية واقتصادية.

وإذا كنا اليوم نعرف أسباب تتابع الفصول فإن أبناء وادي الرافدين لم تكن لديهم معرفة بانحراف محور الأرض ودورانها حول الشمس، لذا تفتق خيال العراقيين الخصب ليسوغ تبادل الفصول من خلال قصة طريفة بطلاها إلهة وإله: اينانا (عشتار) ودموزي (تموز)[1]، اللذان انعكست أحداث حبّهما على الأرض لتشكل الربيع وبقية الفصول.

وعلى الرغم من طرافة هذه الأسطورة وروعتها، إلا أن أياً منا قد يسأل عن أسماء واضعيها. فلا يجد لذلك جواباً.

عندما نتكلم عن أسطورة تموز وعشتار ينبغي أن لا نفكر بوجود نصوص متتابعة متكاملة سهلة القراءة أو تعود كلياً لزمن واحد. ويمكننا إدراك المصاعب إذا ما عرفنا أنهم كانوا يكتبون على الطين. فقطعة الطين الواحدة لا يمكنها أن تحوي إلا على المحدود من الأسطر تكملها قطعة أخرى. العمل إذن شائك وصعب. وكثيراً ما توجد قطع في متحف معين تكملها أخرى في متاحف متباعدة. ومن الواضح أن استمرار نسخ وتداول الأسطورة وتَغَيّر الأحداث السياسية والمستوى الاجتماعي قد ترك آثاره على القصة المثيرة التي ابدعها الفكر العراقي آنذاك. وعلى أي حال. يمكننا اليوم أن نتتبع ومضة تلك الأسطورة في حياتنا. وما احتفال إخواننا الأكراد اليوم بالنوروز (أي اليوم الجديد) إلا انعكاس لما كان يفعله العراقيون القدماء، ونستطيع أن نتلمس ذلك في التسمية السومرية (زاكموك) وكذلك الأكادية "ريش شاتي" (رأس السنة). إنه الربيع محرك المشاعر وباعث الأمل.

الأسطورة

في الوقت الذي لا نجد فيه نصوصاً متتابعة عن أسطورة تموز وعشتار فإنه يمكن أن نضع تتابعاً لأحداثها كالآتي:

خفق قلب الراعي (دموزي) عندما رأى إيناناً (عشتار، كوكب الزهرة، إلهة الحب والجمال) فما كان منه إلا أن توجه إلى "أتو" إله الشمس أخيها طالباً يدها. وإذ يقتنع "أوتو" بشخصيته فإنه يحاول إقناع شقيقته باستعراض لطيف قبل إخبارها بالموضوع مباشرة[٢]. على أي حال، كانت إيناناً تحب شخصاً آخر يدعى "إنكي أمدو" الذي كان يمتهن الفلاحة. وحسب رأي الإلهة الجميلة فيه من البركة والمزايا ما يجعل "المخازن تتكدس بالحبوب" أما انطباعها عن دموزي الراعي فيجسده قولها لأخيها أوتو:

أنا، لا لن أتزوج من الراعي،
وثيابه الخشنة لن أرتدي،
وبصوفه الخشن لن أقبل،
أنا العذراء، سأتزوج من الفَلاّح،
الفَلاّح الذي يزرع من النبات أنواعاً،
الفَلاّح الذي يزرع من الحَب أنواعاً.

"إنكي - أمدو" أخذ يهدئ من روع دموزي وعجب لما يغضبه وبسذاجة الفلاح وكرمه، عرض على دموزي أن يرعى ماشيته في حقوله. هكذا أصبحا صديقين.

وأخبر الراعي رفيقه الجديد بما هو عازم عليه وإنه سيتزوج بإيناناً وبطبية الفلاحين وعده بالحضور وبجلب ما يناسب الحفل الكريم.

ومن حقنا أن نتساءل هنا ما الذي جعل الشاعر السومري يضع شخصيتين - متناقضتين في موضوع واحد؟

يمكننا أن نتلمس الجواب في طبيعة الصراع بين خشونة البداوة التي يمثلها الراعي ولياقة الفلاح المتأقلم ضمن نطاق المدنية والذي لم تعد الومضات الآنية لتعني له مصيراً محدوداً كما هو الأمر بالنسبة لتفكير الرعاة الذين يفتشون عن مغامرات مؤقتة تفصح عما بداخلهم من قلق دائم تجاه مصيرهم في الوجود.

بين الطبيعة والمنطق

كان دموزي يسرح بماشيته على ضفاف النهر عندما تسوقه الأحداث للتعرف على "إنكي - أمدو" غريمه. لقد ساورت الراعي الرغبة في الاعتداء على الفلاح وبدا عليه الغضب. إلا أن تموز ينبري للدفاع عن نفسه قائلاً:

الفلاح أكثر مني! الفلاح أكثر مني!
إنكي - أمدو رجل القنوات والسدود والمحاريث
الفلاح أكثر مني ما الذي عنده أكثر مني ؟

خاطره "كان كافياً" لجعل قلب عشتار يميل إلى دموزي. لقد جعل الشاعر السومري من ذلك منطلقاً تسير منه الأمور لصالح الراعي الذي ما تلبث أن تلتقي به عشتار لقاء الأحبة!

اللقاء الساخن بين إينانا ودموزي أفاض مشاعر الإلهة بالقول:

عندما كنت أغني مع اطلالة النور.
آنذاك التقي بي، آنذاك التقي بي.
سيدي كولي - أنا (دموزي) التقي بي،
سيدي وضع يده بيدي.

أثناء ذلك اللقاء المثير شعرت إيناناً بمرور الوقت، وتبعاً لذلك خافت تقريع أمها لها، لذا توجهت بالسؤال إلى عشيقها الجديد عن حيلة تخلصها مما هي فيه وبذكاء أجابها دموزي بذات العذر الذي تتذرع به الفتيات:

قولي لها أخذتني صديقتي معها إلى الساحة العامة،

ومتعـــتني هنـــاك بالموســـيقى والـــرقص،

وغنـــت لـــي أغنيتهـــا العذبـــة،

وفي غمـــرة الفـــرح فـــات علـــيّ الوقـــت،

بهـــذا العـــذر واجهـــي أمـــك!!

ثم تذهب إينانا إلى والدتها لتخبرها بنبأ خطبة دموزي لها. ويبر الأخير بوعده، ويقصد دار إينانا ليدخلها بعد استعدادات خاصة.

شكل (٥)

مشهد تظهر فيه آلهة عراقية قديمة قبل ٤٣٠٠ سنة وفي الوسط يظهر (تموز) يقطع الجبال بمنشاره مشرقاً ليعلن الربيع. وإلى اليسار الآلهة عشتار ترفرف بجناحيها ويظهر إلى اليمين الإله أيا إله الماء وينبع من كتفيه نهرا دجلة والفرات. والملاحظ هنا أن تموز ظهر بمواصفات إله الشمس الذي يحيا في النهار ويموت ليلاً، أي بدورة تموزية مصغرة.

من عالم الحب إلى أهوال الجحيم

تتسم طبيعة المرأة بحبها للاستقرار والاحتفاظ بمن تحب. إلا أن إينانا كانت تختلف، على ما يبدو عن معظم النساء، فالنصوص السومرية والبابلية والآشورية

للأسطورة توضح أنها تركت عالمها العلوي لتنزل إلى عالم رهيب، ولا علم لنا بالسبب الذي أقدمت من أجله على ذلك. ولكن ربما كان ذلك يعني أن الحياة لا تتكون من الجلوس في برج عاجي بل بتفاعل الأعلى بما هو أدنى.

إننا نفهم من الأسطورة السومرية أن عشتار كانت على علم تام بما سيجري لها وهي تهبط إلى العالم الأسفل وذلك من خلال حوارها مع وزيرها "ننشوبر".

يا رسولي ذا الكلمات الصادقة.
إنني نازلة الآن إلى العالم السفلي،
وعندما أصل إلى العالم السفلي،
فأقم علي المناحة في الخرائب،
وأقرع الطبل من أجلي في قاعة المعبد،
وطف من أجلي في بيوت الآلهة إلخ.

ثم تطلب الإلهة من الوزير أن يقصد معابد الآلهة العظام ليخاطبها هناك إنليل (إله الهواء) بمدينة نفرّ، ننا (إله القمر) بمدينة اور، ثم إينكي (إله الحكمة) في مدينة اريدو، طالباً منهم حماية عشتار عند وجودها في ذلك العالم. تتجه عشتار إلى العالم الأسفل وتلتفت إلى وزيرها مؤكدة:

أذهب يانشوبر،
ولا تهمل ما أمرتك به،

ثم تصل الإلهة إلى القصر، إلى جبل اللازورد، وكان عليها أن تجتاز سبع بوابات تطيع عند كل منها أمراً خاصاً يتعلق بما ترتدي من تاج وأساور وغيرها، بل حتى ما يسترها في الباب السابع. كما كان على إينانا في كل مرحلة ألا تعترض فتلك نواميس العالم الأسفل.

عندما تجتاز عشتار الباب الأخير تقف وجهاً لوجه أمام ملكة العالم السفلي أيرشكيكال، أختها التي كانت تجلس على العرش وأمامها قضاتها السبعة تقول الأسطورة:

"فصوبت نظراتها إليها، نظرات موت ثم حولت الفتاة العليلة إلى جثة هامدة". بعدها يشرع ننشوبر باستغاثة الألهة الواحد تلو الأخر حتى يصل إلى إنكي الذي يعمل ما يستطيع لإعادة الحياة إلى عشتار بطعام وماء الحياة.

عند وجودها في العالم السفلي، ولأنها إلهة الجنس فقد ألمت بالأرض أمور خطيرة. لقد "ابتعد الثور عن أنثاه" و"هجر الرجل زوجته"[٣]، هذا ما تذكره نسخة آشورية. تنهض عشتار بعد رش ماء الحياة ونثر طعام الحياة على جسدها إلا أن قضاة ايرشكيكال السبعة يضعون شرطاً لخروجها من عالمهم قائلين:

"دعها تقدم شخصاً بديلاً عنها".

ترى من سيكون البديل؟

لقد خرجت عشتار من ذلك العالم الغريب تصحبها الرهبة، والخوف من الشياطين الذين صاحبوها. وعندما أوصلوها إلى الطريق المؤدي لمدينتها تقع أعينهم على ننشوبر الذين أرادوه بديلاً يأخذونه إلى عالمهم، إلا أن عشتار تعدد لهم خصائله ومحامده لمنعهم من أخذه. ثم يواصل الشياطين والآلهة مسيرتهم إلى مدينة أومّا[٤] حيث مقر الإله "شارا"، وهنا يحاول الشياطين أخذه بديلاً، إلا أن عشتار تعترض محتجة، فهي تحرص على هندامها وتسريحتها أنه "حلاّقي". يبحثون عن بديل جديد، تبدو عشتار معترضة محتجة.

لقد كان الحظ حظ تموز العاثر، فقد وجدوه عند شجرة تفاح، "فأمسك به الشياطين "فلم يعد الراعي يعزف الناي ولا المزمار".

ثم يقول النص السومري:

"وهكذا أعطت إينانا المقدسة دموزي الراعي بأيديهم". وأخذ المسكين يستغيث رافعاً يديه إلى السماء صوب "أتو" إله الشمس، قائلاً:

أنا من يحمل السمن إلى بيت أمك.
أنا من يحمل الحليب إلى بيت ننكال،
فحّول يدي إلى يدي أفعى،
وحوّل قدمي إلى قدمي أفعى،
ودعني أهرب من الشياطين ولا تدعهم يمسكونني.

إلا أن هروب دموزي المؤقت لم يكن ليغنيه عن المصير المحتم شيئاً. يقول النص السومري:

"فألقوا القبض على دموزي في الحظيرة المقدسة للأغنام".

نعم. إنها ضريبة الحب ومصير بعض العاشقين. أو ليست السعادة أمراً طارئاً في الحياة؟ إنها الهدنة لحرب جديدة دوماً.

بروح الرعاة الحساسة المترقبة كان دموزي يعلم علم اليقين أن ما من أفراح تمر دون مصير مؤلم. فكل مهنة تحدد شخصية صاحبها، فهذه أغنامه الجميلة تمرح في حقولها ولكن سرعان ما تسلم أرواحها للإنسان، وربما نستلم هذا المغزى من الشاعر السومري، على لسان دموزي، الهائم في المروج:

أقيمي المراثي، أقيمي المراثي،

أيتها المروج، أقيمي المناحة، أقيمي العزاء.

ثم يقول متأسياً على الربيع:

ولتذرف عيناي الدموع على المروج مثل أمي،

ولتذرف عيناي الدموع على المروج مثل أختي الصغيرة.

أسطورتان ومنطق مختلف

لكي نعطي لأسطورة تموز وعشتار صورة ذات معالم واضحة نقارنها بقصة عراقية رفيعة هي قصة "جلجامش" بطل مدينة الوركاء (أوروك) وملكها.

إن من يمعن النظر في أسطورة تموز وعشتار يرى أنها تؤكد شخصية المرأة التي تحتل الركن الأساس في الحدث، بل إنها تسوق من تحب إلى عالم الأهوال، أما في الثانية فإن جلجامش الرجل هو العصب الفعلي، كما أن "انكيدو" زميله، هو كذلك رجل، ولا تؤدي المرأة دوراً كبيراً في الأحداث. غير أننا نفهم من تتابع الأمور أن قصة تموز وعشتار أكثر قِدماً من قصة جلجامش، كما أن من يقرأ الأولى يجد أنها تتألف في الأصل من أحداث كانت متناثرة وجمعتها الحقب التالية وألّفت بين أحداثها بما يناسب طور جمعها والنضج الذي وصل إليه المجتمع آنذاك. إن ما يمكن قوله ببساطة هو إننا

نرى في شخصية عشتار امتداداً لعهد كانت المرأة فيه تتمتع بمنزلة مرموقة اعتباراً من عهود الكهوف وعهود العصر الحجري الحديث الذي بدأ في بلدنا منذ نحو عشرة آلاف سنة. إن ما تخبرنا به التنقيبات هو أن الدمى الأنثوية، دون الرجالية، هي التي قدَّسها الإنسان وتقرَّب إليها منذ عهد الكهوف، وكذا خلال العصر الحجري الحديث، الذي شهد بداية الزراعة وتدجين الحيوان وبداية الاستقرار في قرى متواضعة، في حين لا نرى للرجل أهمية مماثلة. وربما يكمن السبب في الاعتقاد بأن المرأة، والأنثى عموماً، هي العامل الأساس في استمرار الحياة. ويتبنى جملة من أهل الاختصاص رأيا مفاده أن خروج الذكور إلى الصيد وبقاء النساء وأطفالهن في الكهوف جعل من المرأة رمزاً مسيطراً مما دعا بالتالي إلى تأليهها، وما دخول تموز عالم الحدث في قصته مع عشتار إلا إشارة لولوج الرجل بصورة تدريجية في المعتقد مع عدم فقدان الألهة لمكانتها.

أما في ملحمة "جلجامش" فإن الرجل هو سيد الموقف كما تُجَسِّده أحداثها بل وتخبرنا به مقدمتها:

هو الذي رأى كل شيء ففني بذكره يا بلادي
وهو الذي عرف جميع الأشياء وأفاد من عبرها
وهو الحكيم العارف بكل شيء.

بعدها يأتي الشاعر السومري إلى أمر مهم يحدد لنا من خلاله بصورة تقريبية الزمن الذي عاش فيه جلجامش قبل نحو ٤٧٠٠ عام. قال الشاعر:

بنى أسوار "أوروك" وحرم "أي - أنا" المقدس والمستودع الطاهر، فأنظر في سوره الخارجي تجد شرفاته تتألق كالنحاس.

ثم تأخذنا القصة إلى استعراض مغامرات جلجامش وصديقه أنكيدو وما لقياه من مخاطر. بعد عودتهما يغتسل جلجامش ويرتدي أفخر الثياب، يقول الشاعر السومري:

رفعت عشتار الجليلة عينيها ورمقت جمال جلجامش (فنادته) "تعال ياجلجامش وكن عرِّيسي الذي اخترت". ثم تعدد ما ستقدمه له من الذهب واللازورد والخيول.

إن العصر الذي عاش فيه جلجامش كان عصر مدينة واضحة المعالم، اتسمت

فيه سطوة الرجل ومن ثم مكانته في عالم الأسطورة. وتبعاً لذلك بدأت العبودية والاستغلال ثم الحروب التي استدعت أن يكون هناك بطل يقود مدينته ثم ليتمرد على عشتار سيدته. لقد ردَّ جلجامش عشتار على طلب الزواج منه بالقول:

ماذا عليّ أن أعطيك لو أخذتك (زوجة)
هل سأعطيك السمن والكساء لجسدك؟
وأي أكل وشراب سأعطيك مما يليق بسمة الألوهية؟

ثم يقول:

أي خير سأناله لو أخذتك؟
أنت ما أنت إلا الموقد الذي تخمد ناره في البرد
أنت كالباب الخلفي لا يحفظ من ريح ولا عاصفة
أنت قصر يتحطم في داخله الأبطال
أنت فيل يمزِّق رِحْلَه
أنت قِير يُلَوِّث من يحمله
أنت قِربة تبلل حاملها
أنت حجر مرمر ينهار جداره
أنت حجر "يشب" يستقدم العدو ويغريه
وأنت نَعْل يقرص قدم مُنْتَعِلِهِ.

وبعد هذا التقريع يأتي جلجامش إلى بيت القصيد فيقول:

أي من العشاق الذين اخترتهم من أحببتهِ على الدوام؟
وأي من رعاتك رضيتِ عنه دائماً؟
تعالي أقص عليك (مآسي عشاقك)
من أجل تموز حبيب صغرك (صباك)
قضيت بالبكاء والنواح عليه سنة بعد سنة.

ثم يستمر جلجامش في تعداد من أطاحت بهم عشتار الواحد تلو الآخر ويستخلص من ذلك أنه لو أحبها لكان مصيره مثل مصيرهم.

ثم يقول الشاعر السومري:

ولما سمعت عشتار هذا استشاطت غضباً وعرجت إلى السماء،

صعدت عشتار ومثلت في حضرة أبيها "آنو"

وفي حضرة أمها "أنتم" وجرت دموعها وقالت:

يا أبي إن جلجامش سبّني وعدد فحشائي وعاري

ففتح "آنو" فاه وقال لعشتار الجليلة:

أنت التي تحرَّشت فجنيت الثمرة

وعدد جلجامش فحشاءك وعارك[٥]!!

ترى هل كان بإمكان جلجامش أن يتطاول على عشتار لو عاش في فترة سبقت عهده؟

زواج الربيع يصبح طقساً

ليست القصة التي تحدثنا عنها مجرد أحداث يسردها قصّاصون على مسامع الناس، لقد كانت قوام أحاسيسهم وارتباطهم بالحياة فقد أملت عليهم طقوساً شغلت بالهم عبر آلاف السنين، فلم يكن الربيع ليعني الخضرة الظاهرة والنماء المتدفق الذي يخرج لهم من الأرض كما يخرج دموزي بالضبط، وإنما كان إلى جانب ذلك يقترن بكثير من الطقوس.

في شهر نيسان من كل عام، ومع إطلالة أول هلال كانت تبدأ المراسيم، مراسيم الزواج المقدس الذي كان يقوم به كاهن وكاهنة، أول الأمر، ثم ملك وكاهنة عندما تغيَّر موقع الحاكم واستلم السلطتين الدينية والدنيوية.

لقد تجلى هذا الزواج بصورة خاصة في عهد سلالة أور الثالثة قبل نحو أربعة آلاف عام، وكانت الغاية من إقامة هذا الطقس السحري إحياء الأرض بعد موتها، وفي العصر البابلي الحديث، قبل أكثر من ٢٥٠٠ عام كان الإله "مردوخ" إله بابل الكبير

البديل عن تموز، وكان الإله "نابو" إله مدينة بورسبا، القريبة من بابل، هو الذي يقوم بتحرير أبيه من عالم الأسر والضياع، وضمن طقوس مُعَقَّدة يُعثر على الإله ليعم الفرح والسرور وليحل الربيع.

السيطرة على الطبيعة كانت الغاية

ما الذي ينبغي أن يتوفر في الأسطورة لتكون مقبولة لدى عامة الناس؟ يبدو أنه ينبغي توافر شرطين أساسيين:

١- أن تستوعب السالف من المعتقد الذي يضم خبرات ومشاعر امتدت لآلاف السنين. وبعبارة أخرى أن تضمن استمرار القديم في الجديد.

٢- أن يُسْقِطَ واضعها ذات الإنسان لتمثّل الحدث.

فهل حوت قصة تموز وعشتار هاتين النقطتين؟

إن أسطورة تموز وعشتار تجمع الصراع بين المعتقدات القديمة وتوجِد لها تخريجات طريفة، فلماذا تنزل الألهة إلى العالم السفلي رغم معرفتها بمخاطره؟ ولِمَ تُضَحّي بتموز عشيقها وزوجها؟ إنه تفسير لقوة المرأة في المعتقد منذ عهود الكهوف وبداية المدينة، في حين لم يحصل الرجل على التأليه إلا بعد فترة طويلة من سيطرته على زمام الأمور، كما أسلفت، ومع ذلك بقي تموز ضعيفاً أمام سطوة عشتار. إنها تسوية بين القديم والأحدث.

إذا ما أتينا إلى الغاية السحرية من إقامة طقوس تموز ثم مردوخ ورثائه، ثم القيام بطقوس الزواج المقدس فإننا سنجد أن علم الفلك يُعيننا على تفهم ذلك.

نحن نعلم أن الشمس تدخل برج الثور في شهر نيسان، ذلك البرج الذي هو واحد من اثني عشر برجاً، ولكل منها كوكبه الدليل، والزهرة هي الكوكب الدليل لبرج الثور، وكما أسلفت إن الاحتفال الرئيس يكون بظهور أول هلال خلال تلك الفترة. فالشمس والقمر، وكذا الزهرة في موقع يجعل كلا منهما يهب الحياة، ولكن يجدر بنا أيضاً أن نفهم السر في إقامة تلك الطقوس.

إن مبدأ محاكاة الشيء للحصول على قوته وفاعليته كان الغاية من وراء إقامة طقوس الزواج المقدس، فدخول الشمس برج الثور، برج عشتار (كوكب الزهرة) هو ما ينبغي الاحتفال به. ولكن هل يكفي أن يحدث ذلك في السماء؟ وما الذي ينبغي الإنسان ليستفيد منه في موقعه؟ لقد افترضوا أن على القوى المقدسة على الأرض أن

تُحاكي ما يحدث من اقتران علوي بين الكواكب لعكس الخير والرفاه على الأرض كما هو في السماء، فدخول الشمس برج كوكب الزهرة قِران سماوي ينبغي أن يكون له ما يُمثِّله على الأرض للاستفادة من فاعليته لإخصابها.

لقد مارست شعوب عديدة ما يطلق عليه " مبدأ المحاكاة " الذي يبرز بشكل واضح في المعتقدات الطوطمية والتي تتلخص أفكارها في اتخاذ الفرد والأسرة ثم العشيرة أو مجموعة من العشائر رمزاً معيناً نباتياً، أو أي رمز آخر. ويمكن للقبيلة التي تتخذ الديك رمزاً لها أن تحصل على قوة طوطمها في تقليد شكله الظاهري وحركاته. وبعبارة أخرى اعتقدت شعوب كثيرة أن تقليد شيء أو حدث معين يحقق ذات الشيء المرغوب الحصول عليه، وهو على أي حال، ضرب وممارسة لمبدأ السحر الإنجذابي.

تموز يمسي رمزاً

في أسطورة تموز وعشتار تفسير لمنطلقات الطبيعة ضمن مفهوم فلسفي أسقط ذات الإنسان كمحرِّك لأحداث الطبيعة. وهو الشرط الثاني الذي يضمن استمرار أسطورة معينة، إلا أنها لم تكن قصة تُسْرَد في مناسبات معينة وإنما تبريرات تفاعلت مع الفكر العراقي لبضعة آلاف من السنين. فها هو شهر تموز في تقويمنا يحمل اسم عشيق عشتار إذ يُمَثِّل شهر الحر وموت الحياة، ففيه ينزل تموز إلى العالم الأسفل ليجذب الخصب والنماء إليه. وعلى أي حال، هناك فرق زمني (حوالي أسبوعين) بين تموز الشرقي وتموز في تقويمنا. ففي التقويم الشرقي يبدأ بعد أسبوعين من بدايته في التقويم الحالي ويستمر إلى منتصف آب، وبذلك يمثل تموز الشرقي قمة الحر القاسي الذي كان يتطلب من العراقيين القيام بطقوس معينة للحفاظ فيه على توازن الطبيعة واستمرار الحياة. لقد كانوا يقيمون العزاء والحزن الجماعي لموت الإله ضمن طقوس صعبة كبداية لإنقاذه من أسره ليعود النماء مرة أخرى. ولكن كم هي الفترة التي يستغرقها بقاء تموز في عالم الأسر؟

لقد جرى نقاش طويل حول هذا الموضوع، ولأن النصوص التي وصلتنا غير كاملة فقد التبس الأمر على ذوي الاختصاص، إلا أن الجدل سرعان ما خمد، إذ إن سطرين مسمارين غيرا في الأداء. إفادة النص:

أنـــت (يـــا دمـــوزي) لنصـــف الســـنة

وأختـك (كشـتن - أنـا) لنصـف السـنة

وبموجب ذلك اقتسم دموزي فترة مكوثه في عالم الأسر مع (كشتن - أنا) أخته ستة أشهر لها وستة أشهر له، وهذا يعني أن تموز يبدأ بالخروج في نهاية كانون الأول في تقويمنا وبحلول الشتاء تبدأ الأمطار بغسل خطايا أهل الأرض وتبعث الأمل في التربة لضمان شروق كامل وإطلالة فاعلة لتموز ليحل الخير والربيع، وكان لزاماً على القدامى أن يؤدوا طقساً خاصاً بذلك يبحثون فيه عن الإله المختفي ليجدوه في مكان ما. وكما هو الحال مع إله بابل "مردوخ" بعد العثور عليه، يقوم بكتابة أقدار العام الجديد ومصيره المحتوم.

مراحل الاحتفال بأعياد الربيع

لكي نعطي مادة الأعياد نظرة أكثر شمولاً ويستعين بها القارئ لفهم احتفالات الربيع الحالية (النوروز)، لابد من التطرق إلى أمر مهم يتمثل في عرض الاستعدادات الطريفة المتَّبعة في العراق القديم.

كما قلنا إن احتفالات الربيع كان يلازمها إجراء مراسيم الزواج المقدس وإقامة الولائم في "بيت آكيتو". ويرى البعض أن الزواج المقدس كان احتفالاً مستقلاً أول الأمر أدمج في احتفالات الربيع. وكذا قيل على الإجراءات التي كانت تُجرى في "بيت آكيتو" خلال فصلي الربيع والخريف أول الأمر، ثم اقتصرت على فصل الربيع في التالي من الأيام. ومما قيل في المصطلح "آكيتو" إنه غير معروف الأصل حسب المصادر الأجنبية[٦]، إلا أن استعراض المفهوم الحرفي للكلمة "آ - كي - تي" فالكلمة "تي" تعني "الأرض"، أما "تي" فبمعنى "يقرب" أو "يستنزل". وبهذا يكون المعنى "محل استنزال المطر"[٧]. ويبدو أن الطقوس التي كانت تجري خريفية في الأصل ما دام البذار يتمّ في هذا الفصل.

وعلى أي حال، تتحدث لنا المصادر المسمارية عن جانب طريف للولائم التي كانت تُجرى في بعضها. ومثل تلك البيوت كانت موجودة في أور والوركاء وبابل وآشور ومدن عراقية عديدة. ويبدو أنها كانت تُستَغَلُّ سياسياً إضافة إلى مضمونها الديني.

إن الحديث في مادة احتفالات العراق القديم طريف ومهم وسنستعرض سطوراً مُركَّزة في ذلك ليساعدنا في إعطاء فكرة شاملة عن احتفالات الربيع العراقية[٨].

كانت للعراقيين القُدامى أعياد فصلية كثيرة كما يمكن استنتاجه من أسماء الأشهر، فبداية كل شهر قمري يكون العيد وكذلك الأيام (٧ ،١٥) وآخر يوم من الشهر، وأهم الأعياد هو عيد رأس السنة (الآكيتو) الذي يتم فيه الزواج المقدس بين الملك ممثلاً الإله تموز وكاهنه تمثل عشتار. وترجع أهم نصوص هذا الزواج إلى عصر أور الثالثة قبل نحو ٤١٠٠ سنة. وكانت مراسيم الزواج تُقام في المعبد وتحت إشراف الكهنة ويتم زواجهما في "الجيبارو" حيث يعد فيه للعروسين سرير من خشب الأرز مُطعَّم باللازورد، وعند وصول الملك بموكبه إلى المعبد يأخذه الكاهن بيده إلى حجرة الكاهنة العروس وهي في أجمل حللها وزينتها ثم تُنْشَد أغنية تدعوه إلى وصالها. ثم يتصل الملك بالكاهنة بما يُمثِّل محاكاة طقوسية لزواج ربة الخصب إينانا من تموز. وتختتم طقوس هذا الزواج باحتفال ومأدبة يقيمها الملك في القصر على شرف الكاهنة زوجته الطقسية، ثم تمر جموع الناس من أمام المنصَّة حيث يقف الملك معها وهي تصفق وتهتف لهما مع عزف الموسيقى.

كان عيد رأس السنة يستغرق أثني عشر يوماً (بقدر عدد أشهر السنة). ويبدأ في نيسان مع إطلالة الهلال وهو يرمز إلى الصراع بين القوى الطبيعية وانتصار العناصر المولِّدة للحياة في الربيع، وانتصار آلهة الخير على آلهة الخراب في الكون ممثلة في فوز الإله مردوخ على قوى الشر التي تزعمتهم "تيامة". وتتركز طقوس العيد على مراسيم تموز الذي نعرف عن موته في الصيف وإقامة الناس مواكب العزاء والمناحات والحزن الجماعي على فقده. وكانت مواكب الحزن على الإله تموز المتوفى تبدأ في الثاني من تموز، حيث تقام مراسيم البكاء وتُحمل فيها المشاعل وكذلك في الأيام (٩، ١٦، ١٧) من تموز. وفي الأيام الثلاثة الأخيرة منه يجري الاحتفال بطقوس "التاكميلتو" يتم خلالها عرض ودفن طقسي لدمية تُمَثِّل تموز المتوفى، وما عيد الآكيتو إلا الاحتفال بعيد قيامه وقهره للموت في ربيع السنة الجديدة. ومما يؤسف له أن النصوص الخاصة بعيد الآكيتو غير كاملة. وكان يحيا في الوركاء وأور بالخريف والربيع وتقام احتفالاته في مكان خاص يسمى بيت الاحتفالات "الآكيتو" يقع خارج المدينة قرب قناة أو على نهر بما نراه

في الوركاء وآشور وبابل، ولكل يوم منه مراسيم خاصة. ويظهر أن عيد "الآكيتو" كان معروفاً في أور ولجش واومّا خلال العصر الأكادي وشاع الاحتفال به في العصر البابلي القديم، وخصصت الأيام الأربعة الأولى من عيد "الآكيتو" لتقديم الأضاحي وتعيين محلات الكهنة في الحفلات وواجباتهم. ويقوم الكاهن الأعلى "الشيشكال" بوضع ثوب جديد على تمثال "مردوخ". وفي اليوم الثاني يَمثل "الشيشكال" أمام مردوخ (بعد أن يُسدل ستارة أمامه) ليقرأ ترتيلة مطوَّلة في مدحه وقوَّته، ثم تُفْتَح أبواب المعبد ويدخل السادن "الايريب بيتو" ومعه الكاهن المختص بتراتيل قصائد المراثي ويتبعه كاهن آخر ينشد الترانيم الدينية، ويستمر بإقامة الصلاة أمام مردوخ وزوجته حتى الصباح، وقبل خروجهم من هيكل "مردوخ" يؤدون شعائر خاصة لتاج الإله "نبو"، ثم يصلون بعدها ثلاث مرات إلى "مرودخ". وفي اليوم الثالث يؤم الكاهن الأعلى بالصلاة إلى مردوخ بالاشتراك مع بقية الكهنة. وبعد مضي ثلاث ساعات على شروق الشمس يدعو "الشيشكال" حَدَّاداً ويسلّمه عدداً من المجوهرات وكمية من ذهب خزانة "مردوخ" لصنع تمثالين لاحتفالات اليوم السادس، ثم يدعو نَجّاراً ويعطيه قطعة من خشب الأرز، وبعدها يقدم كمية من الذهب إلى صائغ يستدعيه ويلزم أن يكون طول كل تمثال سبعة أشبار، الأول من خشب الأرز والثاني من خشب أثل وعليه أربعة درر وذهب بزنة أربعة مثاقيل. ويحمل كل تمثال في يساره ثعباناً ويرفع اليمنى بتحية للإله "نبو"، ويحمل الثاني بيسراه عقرباً، ويلبس التمثالان أردية حمراء ويتحزمان بسعفة ويوضعان حتى اليوم السادس في بيت الإله مادان، ويقدم لهما الطعام من سفرة هذا الإله على أن يكونا جاهزين في اليوم السادس لإجراء مراسيم الغفران أمامهما. ويقدِّم "الشيشكال" أمام تمثال هذا الإله كل يوم قطعاً من لحوم الغنم المضحّاة فيعطي الإلية إلى الحداد والصدر إلى الصائغ والفخذ للنجار والأضلاع للحائك. وتُعاد مراسيم الصلاة في اليوم الرابع كالتي أديت في الثالث، ويصلي الكاهن الأعلى وهو بملابس كِتَّانية بعد الاغتسال بماء النهر للإله "مردوخ" وزوجته قبل شروق الشمس بأكثر من ثلاث ساعات، ثم يخرج إلى فناء المعبد بانتظار ظهور نجوم خاصة مُقدَّسة حتى يبدأ بقراءة ترتيلة خاصة. وفي مساء هذا اليوم يبدأ بقراءة أسطورة الخلق البابلية بلحن شجي مؤثّر ثم يفتح باب المعبد ويدخل جميع الكهنة لتأدية ما عليهم من الطقوس الدينية ويتلوها

الكهنة النادبون. وفي اليوم الخامس وبعد صلوات وقراءة تراتيل يُرَشُّ المعبد بالماء والزيت المقدسين ويُذبح كبش ويتلو الكاهن الرقى والتعاويذ خلال عملية مسح الجدران برأس الكبش المُضَحّى للتخلص من أرواح الشر. ثم يرمي كاهن الرُّقى والقصاب رأس الكبش وجثته في النهر آخذين معهما أرواح الشر. ويعمل النجارون في هذا اليوم منصَّة في المعبد تسمى "السماء الذهبية" تكريماً لزيارة للإله "نبو" من بورسبا. ثم يدخل الملك إلى معبد "مردوخ" ومعه الكاهن، وعندما يقف في حضرة "مردوخ" يتركه الكاهن وحده، ثم يدخل عليه الكاهن ويخلع عنه التاج وشارات الملك ويضعها على منضدة أمام تمثال "مردوخ" ويقرأ، الملك اعترافه: "لم أذنب ياسيد البلدان ولم أكن مهملاً لألوهيتك، ولم أُخرِّب بابل ولم أسبب لها الهوان. لم أُخَرِّب "الايساكيلا" وأهمل مناسكه" ويجيبه الكاهن: "لا تخف ولا تحزن، إن مردوخ سيسمع صلاتك ويوسِّع سلطانك ويعلي من شأن ملوكيتك وينصرك على أعدائك ومناوئيك". وهنا يدنو الكاهن من الملك ويصفعه على وجهه ويفرك أذنيه ويرجع له ما انتزعه من شارات الملك بعد أن يلطمه. والمعروف أنه كلما كانت اللطمة شديدة بحيث تؤدي إلى توجّع الملك إلى الحد الذي تدمع معها عيناه كانت فالا" حسنا للسنة القادمة وتؤدي إلى رضى "مردوخ". وفي مساء اليوم نفسه يشارك الملك في إقامة طقوس مُعَيَّنة في ساحة المعبد حيث تُحفَر حفرة في الأرض وتحضَّر حزمة مكوَّنة من أربعين قصبة تُربط إلى سعفة ويشدّون إلى جوار الحفرة ثوراً أبيض اللون ثم يشعل الملك والكاهن النار في الحفرة بعدها يُنحر الثور ثم يُتلى دعاء خاص. وطيلة فترة وجود الملك داخل المعبد يجتمع الناس في الخارج وهم في قلق وهلع حيث يعتقدون أن الإله أسير في العالم السفلي ويزداد قلقهم لتجريد الملك من صفته الرسمية حيث صار المجتمع آنذاك دونما سلطة. ويتراكض الناس في الطرقات صارخين، وربما يقفون في صحن المعبد وخارج البلدة قرب معبد "الآكيتو" وربما تروح عربة "مردوخ" وترجع خالية في طرقات المدينة حداداً، وقد تُمَثَّل تمثيلية لعشتار وهي تنوح على الإله المفقود.

يأتي الإله "نبو" في اليوم السادس من العيد لزيارة والده مع آلهة والده لتخليصه من أسره في عالم الأموات، وفعلاً يثأر "نبو" لأبيه ويخلصه من أسره. وينزل "نبو" خلال إقامته في بابل في هذا العيد بالمزار الخاص به من معبد "الايساكيلا". ثم ترد إلى بابل

آلهة المدن البابلية الأخرى مثل نُفَّر، الوركاء، كيش وكوثا إلخ. وعند نزولها من سفنها ببابل تؤخذ في موكب مهيب بشارع الموكب مارة من باب عشتار شمالاً بأتجاه معبد الآكيتو برفقة الملك وهو أمام موكبها الماء المقدس. وكان الملك الآشوري خلال هذا اليوم يُمَثِّل الإله "نينورتا" الذي ينقذ آشور من أسره. وعند وصول "نبو" إلى بابل تُقْتَل بعض الخنازير الوحشية في أحراش القصب القريبة رمزاً لقتل آلهة الفوضى والماء ثم يقطعون رؤوس التماثيل المُزيَّنة بالجواهر.

وتمثل في اليوم السابع تمثيلية حزينة تصور موت "مردوخ" وعروجه إلى السماء، حيث يُجرح الإله في هذا اليوم ثم يموت ويخرج الناس يبكون مفتشين عنه. وتسود في هذا اليوم الفوضى نتيجة فقدان الإله وتُشد عربة بحصان هائج يركض في شوارع المدينة على غير هدى، ويسلم الحكم إلى أحد عامة الناس الذي يلتف حوله عدد من الأشخاص يحكم طول النهار كيفما يشاء ويظل عابثاً حتى غروب الشمس حيث ينزل عن العرش وتؤخذ منه إشارات الملك التي تعطى إلى الملك الشرعي الذي يجلس وسط تهاليل الشعب، وفي هذا تعريف للناس بأهمية الحكم المُنَظَّم وانتصار "مردوخ" على "تيامة".

تدب في اليوم الثامن الحياة ثانية في "مردوخ" ويعود معه كل شيء فتجتمع الآلهة في مخدع الآجال بمعبد "مردوخ" لتعيين إقرار السنة الجديدة. ويقف الناس خلال هذه الاحتفالات بهدوء في الخارج خشية تعكير صفو اليوم التاسع تسير تماثيل الآلهة في استعراض كبير من معبد "الايساكيلا" مارَّة بشارع الموكب فباب عشتار وتعبر الفرات إلى معبد "الآكيتو". وربما كانت تُمَثَّل هذا اليوم تمثيلية تصور الحرب بين آلهة النظام والخير وأرباب الشر والخراب. يحتفل في اليوم العاشر مردوخ بالاشتراك مع الآلهة الأخرى لانتصاره وتقام وليمة خاصة بالمناسبة في معبد "الآكيتو" ويعود بعدها "مردوخ" إلى معبده للاقتران بعروسه وهو الزواج المقدس الذي يُمَثَّل فيه "مردوخ" وزوجته في المخدع بأعلى الزقورة. وفي اليوم الحادي عشر تعود الآلهة للاجتماع في معبد الايساكيلا لتأكيد آجال البشر، أما في اليوم الثاني عشر فيحتفل فيه بعودة الآلهة إلى مدنها.

الهوامش

١. "تموز" هو الاسم الأكادي أو البابلي لآله سومري هو "دموزي" ويعني أسمه "الابن الصالح".

٢. عبد الواحد، فاضل. عشتار ومأساة تموز، (سلسلة الكتب الحديثة -١٢)، الأسطورة مقتبسة عن المصدر المذكور.

٣. يُفَضِّل الأستاذ طه باقر استخدام تعبير "العالم الأسفل" في كتبه ومقالاته إلى جانب تعبير "العالم السفلي" أحياناً، في حين يستخدم د. فاضل عبد الواحد التعبير الأخير بشكل مُطَّرد. أما المصطلح بالسومرية فهو "كي كورتو" وبالأكادية "شابليشو".

٤. مدينة "أماّ" هي إحدى مدن جنوب العراق وكانت لها علاقة حرب وسلام مع مملكة لكش المجاورة لها والتي كانت "تلول الهباء" مقرّاً لها. أما "أُمّا" فيسمى موقعها "تل جوخة" اليوم.

٥. حول قصة جلجامش راجع: ملحمة كلكامش للأستاذ طه باقر، (سلسلة الثقافة العامة - ٨) وزارة الأعلام بغداد، ١٩٧١.

٦. The Assyrian Dictionary (Chicago). Germany, 1964, Vol. I, Part I, p.267.

٧. حول الموضوع تُراجع رسالة الماجستير غير المنشورة للباحثة راجحة النعيمي بعنوان: الأعياد في حضارة بلاد وادي الرافدين، بغداد / ١٩٧٦.

٨. إن الفقرات الخاصة باحتفالات أيام الربيع مقتبسة عن الدكتور سامي سعيد الأحمد: المعتقدات في العراق القديم، بغداد / ١٩٨٨، ص ٤٧- ٥٢.